المجلد: 04؛ العدد: 01؛ 2015
ص 59-76

مجلة منبر التراث الأثري
ISSN: 2335-1500, EISSN: 2602-7267

الخصائص المعمارية للمصليات الجنائزية بمنطقة وادي ميزاب وواقعها

أ. د. معروف بلحاج (جامعة تلمسان)

Abstract:

The architecture in the valley of M'zab makes all what he could to create a building which is in line with the nature of the climate of this region; distinguishing the intense heat in summer and cold in winter. This interaction between the atmosphere and building materials formed an excellent architectural characteristics, which was always faithful to the traditions of Islamic architecture that were subject essentially a to Islamic teaching.

According of their social needs, the M'zabites has constructed a variety of religious and civil buildings.

Considering the community of M'zab a religious one, subject to the authority of spirits (halqa of Azzaba) whose given a special attention and interest to the religious buildings specially the funeral mosques. It is intended here by the funeral mosques: the architectural space that mediate the tombs in the valley of the M'Zab and perform the functions of a close relationship with the dead.

These ones are located in graves which surround the city; so for what and why this particular site? and what is the role of these buildings?

These mosques has taken a variety of forms: some are completely open, others are partially exposed, others also covered, so what are their patterns and types?

Through this research we'll try to answer the above questions in relation with the subject exposed.

مقدمة:

إنّ المعماري في وادي مزاب بدل كلّ ما في وسعه لخلق عمارة تتماشى وطبيعة مناخ المنطقة الذي تمتيزه الحرارة الشديدة صيفا والبرودة شتاء. وبتفاعل هذا لمناخ مع مواد البناء المتوفّرة في نفس البيئة تشكّلت عمارة تحمل خصائص معمارية متميّزة، لكنّها كانت دائما وفية لتقاليد العمارة الإسلامية التي خضعت في جوهرها لتعاليم الدين الإسلامي الحنيف.

لقد شيّد المزابيون تبعا لاحتياجاتهم ونشاطاتهم الاجتماعية منشآت معمارية ومرافق عمومية متنوّعة دينية ومدنية ودفاعية، وباعتبار المجتمع المزابي مجتمعا متديّنا ويخضع لسلطة روحية (حلقة العزّابة) فقد أعطى اهتماما وعناية خاصّة للعمائر الدينية. ومن بين هذه المباني الدينية التي أولى لها المزابيون اهتماما بالغا نجد المصلّيات الجنائزية.

ونقصد بالمصلّيات الجنائزية هنا تلك الفضاءات المعمارية التي تتوسّط المقابر في منطقة وادي مزاب والتي تؤدّي وظائف ذات علاقة وطيدة بالميت .

لقد اختير لهذه المصلّيات الجنائزية موقعا وسط المقابر التي تحيط بالمدينة من كلّ جهاتها، فلماذا هذا الموقع بالذّات ؟ وما هو دور هذه العمائر داخل المقابر ؟

اتّخذت مصلّيات المقابر أشكالا متنوّعة فمنها ما هو مكشوف تماما، ومنها ما هو مكشوف جزئيا، ومنها ما هو مغطّى كلّيا، فما هي أنماطها وأنواعها ؟

فمن خلال هذا البحث سنحاول الإجابة على الإشكالية المطروحة ومن خلال ذلك سنبرز خصائص ومميّزات هذه المنشآت المعمارية ومدى تلاؤمها وتفاعلها مع المحيط الذي تتواجد فيه.

1 - الإطار الجغرافي والتاريخي:

قبل الخوض في غمار موضوع بحثنا، لا بدّ لنا من تحديد المنطقة جغرافيا وإعطاء لمحة تاريخية مختصرة عنها.

1 – 1 الموقع الجغرافي:

ينتمي وادي مزاب إلى الحوض الشرقي للصحراء الجزائرية والذي يحدّه شمالاً جبال الأطلس الصحراوي، ومن الغرب والجنوب الغربي قورارة وتوات، ومن الجنوب منطقتا الأهقار

والطاسيلي، ومن الشرق الحمادة الحمراء ومنطقة غدامس[1].

تقع التجويفة البيضاوية لوادي مزاب بين خطّي عرض 32° و33° ‹20 شمالا، وبين خطّي طول 0° ‹4 و2° ‹50 شرقا[2]. وتبلغ مساحة الوادي حوالي 8000 كلم[2]، ويتراوح علوّها عن سطح البحر ما بين 300م و800م[3]. ويبتعد مركز منطقة وادي مزاب -غرداية- عن الجزائر العاصمة بحوالي 600 كلم.

تمتاز منطقة وادي مزاب عموما كباقي المناطق الصحراوية الأخرى بمناخ جاف. لذا فإنّ الأمطار تكون شحيحة جدًّا وفي فترات غير منتظمة، وتصل كميّة التّساقط السنوية إلى حوالي 130,7 مم. كما يمتاز مناخ المنطقة بتباعد الحدّين الحراريين في اليوم الواحد وبين الصيف والشتاء. إذ تبلغ درجة الحرارة صيفا 48° وتنزل إلى درجة 0°[4].

تهبّ على المنطقة رياح شمالية وشمالية غربية تكون باردة وتسمح بتساقط كمية من الأمطار في فصل الشتاء، وقد تكون غربية. وأمّا في فصل الصيف فتهبّ في غالب الأحيان ريّاح جنوبية تكون جافّة وحارّة وهي المسؤولة عن الحرارة الشديدة التي تجتاح المنطقة في هذا الفصل.

1 – 2 لمحة تاريخية عن المنطقة:

إنّ بقايا أثار وأطلال القصور القديمة المتناثرة في منطقة وادي مزاب تدلّ دلالة واضحة على أنّ المنطقة كانت عامرة بالسكّان قبل نزوح الإباضيين إليها. فمن هم هؤلاء السكان الذين استقرّوا في المنطقة قبل القرن الخامس الهجري ؟.

يتحدّث عبد الرحمن بن خلدون عن هؤلاء السكان في قوله << من بني واسين هؤلاء بقصور مصاب على خمس مراحل من جبل تيطر، في القبلة لما دون الرمال، على ثلاثة مراحل من قصور بين ريغة، وهذا الاسم للقوم الذين اختطّوها ونزلوها من شعوب بادين، وضعوها في أرض حرّة على إحكام وخراب ممتنعة في مسارحها، بين الأرض المحجرة المعروفة بالحمادة في سمت العرق، متوسّطة فيه، قبالة تلك البلاد على فراسخ في ناحية القبلة، وسكانها لهذا العهد شعوب زناتة، وإن كانت شهرتها مصاب...>>[5].

لقد شيّد بنو مزاب الذين كانوا على مذهب المعتزلة الواصلية[6] قبل نزوح الإباضية إلى

المنطقة قصورا صغيرة، اندثرت كلّها ولم يبق منها سوى بعض الأطلال، وقد عدّها الدكتور جون هيغي[7] بنحو خمسة وعشرين قصرا نقلا من مصادر إباضية لم نتمكّن من الاتّصال بها .

وتحدّثنا المصادر الإباضية[8] عن انضمام المزابين إلى المذهب الإباضي، وتخّليهم عن المذهب المعتزلي بفضل مجهودات العلاّمة الإباضي أبي عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي[9].

لقد كانت الهجرات جماعية أو فردية على مرّ القرون من أنحاء شتّى من بلاد المغرب؛ من سدراتة ووارجلان ووادي ريغ ونفوسة وجربة وجبل عمّور وقصر البخاري والمدية وسجلماسة وفقيق والساقية الحمراء ومن غيرها من المناطق المختلفة، وقد كان هؤلاء المهاجرين إمّا إباضية أو أنّهم اعتنقوا المذهب الإباضي عند استقرارهم بالمنطقة، فأصبحت تسمية بني مزاب تشمل حتّى هؤلاء النازحين الجدد الذين ساهموا بقوّة رفقة سكان المنطقة في تشييد مدن وادي مزاب السبع، وبفضل جهودهم وتضحياتهم وصبرهم على شظف العيش وكدّهم المستمرّ تمكّنوا من إحياء أراض موات في أرض قاحلة جرداء. فشيّدوا على ضفتي الوادي خمس مـدن؛ العطف (404 هـ/ 1014 م)، وبنـورة (438-448 هـ/ 1046-1056م)، وغـرداية (439 هـ / 1048م) وبني يزقن (1321-1347م)، ومليكة (756هـ / 1385م)، وبعد أن اكتظت المنطقة بالسكّان لجأ المزابيون إلى استحداث مدينتين أخريين هما؛ القرارة (1041 هـ/ 1631م) وتبعد عن مركز مزاب بحوالي 120 كلم، وبريان (1090 هـ/ 1679م) على بعد 43 كلم من مركز مزاب[10]. وحفروا الآبار وبنوا السدود وشقّوا الترعات فأنشؤوا بذلك واحات من النخيل بجانب كلّ مدينة، كما سنّوا تنظيمات اجتماعية (مجلس العشيرة ومجلس الأعيان وحلقة العزّابة ومجلس الأعلى لعزّابة وادي مزاب...الخ) حافظت على تماسك المجتمع المزابيّ وجعلت منه مجتمعا راقيا متحضرا، فكوّن لنفسه نمطاً حضارياً متميّزاً.

2 - مفهوم المصلّى الجنائزي ونشأته:

هناك من يطلق عليها أيضا اسم <<مصلّى المقبرة>>، وقبل الخوض في ثنايا الموضوع لا بدّ من تقديم تعريف لهذا المصطلح، فأمّا مفهوم المُصلّى بالضّم وتشديد اللاّم، فيعنى موضع الصلاة، وقيل أيضا موضع الدعاء[11]، كما في قوله تعالى: <<وَاتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى>>[12].

وأمّا مفهومه كمصطلح، فيُقصد به تلك المنشآت أو العمائر التي تخصّص للصلاة في مناسبات مختلفة مثل صلاة العيدين (الفطر والأضحى)، ومن هنا اشتهرت باسم مصلّى العيد. وتجاوزا

أُطلق على المساجد بدون مئذنة اسم المصلّى[13].

وبأداء صلاة الجنازة في هذه المصلّيات، أصبحت تُعرف باسم المصلّى الجنائزي. ويُبنى هذا المصلّى في بعض الأحيان مجاورا لمصلّى العيد، وقد يُستغلّ نفس المصلّى لأداء صلاة العيد وصلاة الجنازة في آن واحد. فضلا عن أداء صلاة الاستسقاء كما تذكر ذلك بعض المصادر التاريخية[14].

أدّت المصليات دورا عظيم الشأن في المجتمعات الإسلامية لا سيّما في العصور الوسطى وبالخصوص في منطقة وادي مزاب.

لقد ورد في المصادر التاريخية أنّ المصلّى الجنائزي في المدينة المنوّرة كان ملاصقا بمسجد الرسول صلى الله عليه وسلم من ناحية الشرق، وما يؤكّد هذا القول ما تذكره المصادر التاريخية من أنّ جدار الحجرة الشريفة التي تلي موضع الجنائز - يعني جهة الشرق- سقط في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وظهرت القبور المقدّسة[15].

وقد ظلّ ذلك الموضع يحمل اسم مصلّى الجنائز إلى وقت قريب، إذ يشير عبد القادر شيبه الحمد إلى ذلك في قوله <<ولا زلنا نسمع إلى الآن أنّ الساحة الواقعة بجانب جدار المسجد النبوي الشريف من الناحية الجنوبية الشرقية والتي أُحيطت من جهة الشرق والشمال والجنوب بجدار قصير، أنّها كانت مصلّى الجنائز>>[16].

لقد انتشرت هذه المصلّيات في العديد من المدن الإسلامية، فكانت تُعرف أحيانا باسم <<المصلّيات الجنائزية>> وأحيانا أخرى باسم <<مصلّيات المقابر>>. ولقد أُلحقت هذه المصلّيات الجنائزية سواء المغطّاة منها أو المكشوفة ببعض الجوامع ويقدّم لنا محمد الكحلاوي أمثلة من ذلك في بلاد المغرب مثل المصلّى الملحق بجامعي القرويين والأندلسيين بفاس[17]، وأمّا في مصر فصلاة الجنازة كانت تُقام في المساجد. وهذا لا يعني بالضرورة أنّ العمارة المصرية الإسلامية لم تعرف هذا النوع من العمائر، بل من المؤكّد أنّها عرفتها مثل بقية الأقطار الإسلامية، ويُفهم من المصادر والوثائق التاريخية أنّها كانت عديدة، وكانت إمّا ملحقة بالعمائر الدينية وخاصّة بالمساجد أو بُنيت مستقلّة. وتعلّق عليها أوقاف وحبوس عديدة، ومن أمثلة ذلك المصلّى الملحق بمسجد الأمير علي كاشف جمال الدين بمنفلوط الذي أنشئ سنة 1176 هـ/ 1762م[18].

ويُقصد بالمصلّى الجنائزي في منطقة مزاب تلك المبنى الذي يوظّف لأداء صلاة الجنازة أو

تُمارس فيها بعض الشعائر الدينية التي لها علاقة مباشرة بالميت، مثل تلاوة القرآن الكريم، وممارسات أخرى لها علاقة بالجانب الاجتماعي.

3 - المصلّيات الجنائزية في مزاب:

قبل أن نخوض في توضيح الخصائص المعمارية للمصلّيات الجنائزية بمزاب من الناحية المعمارية، لابدّ من التوقّف في الدور الذي كانت تؤدّيه هذه العمائر داخل المجتمع المزابي. وما هي العلاقة التي تربطها بالمسجد ؟

3 – 1 وظيفة المصلى الجنائزي بوادي مزاب:

تؤدّي المصلّيات الجنائزية أدورا متنوّعة وهامّة داخل المجتمع المزابي ومنها الدور التعليمي والتربوي والاجتماعي.

لقد كان لهذه المصليات دور أساسي في ميدان التعليم، وفي اعتقادنا أنّ فكرة إنشائها كانت في الأصل لغرض تعليمي بحث. إذ يبدو أنّ بعض المشايخ الإباضيين الأوائل في وادي مزاب كانوا يتّخذون من المباني البعيدة عن التجمعات السكّانية أماكن لأداء مهمّة التعليم والتدريس على أحسن وجه، وذلك اقتداء بأسلافهم من مشائخ الإباضية الذين كانوا يلجئون إلى مغارات طبيعية أو غير طبيعية، وذلك في سبيل أداء مهامهم في أحسن الظروف، وعندما نتحدّث عن المغارات يتبادر إلى أذهاننا بطبيعة الحال اتّخاذ الرسول صلى الله عليه وسلم غار حيراء للتعبّد[19].

يبدو أنّ الغار كان يكفل قدرا من الحماية والأمان للمجموعات المضطهدة فقد اتّخذ الرسول صلى الله عليه وسلم غار ثور ملجأ يحتمي فيه ضدّ أعدائه الذين كانوا يريدون القضاء عليه، كما أنّ للظروف التاريخية جعلت المجموعات الإباضية تلجأ إلى المغارات فرارا من مضطهديهم، وقد تكون هذه المغارات على شكل سراديب تحت الأرض تُمارس في داخلها مهنة التدريس، ولنا في التاريخ الإباضي أمثلة عديدة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر الغار الذي آوى إليه أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة وتلاميذه ممن يُطلق عليهم اسم <<حملة العلم>>[20]، واقتداء بأسلافهم في المشرق فقد اختار الشيوخ الإباضيون في شمال إفريقيا مغارات كأماكن للتدريس بعيدة عن مشاغل الدنيا وشهواتها، وقدّم لنا أبو العباس الدرجيني في كتاب الطبقات أمثلة عديدة عن هؤلاء العلماء من بينهم نذكر أبا عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي النّفوسي[21] الذي

اختار الاعتزال مع تلاميذه في غار <<تين ايسلي>> بوادي ريغ.

وليس أدلّ على ذلك ما قام به عمّي سعيد الجربي عندما استقرّ في مزاب، حيث خصّص المصلّى الذي ابتناه (المصلّى الجنائزي عمّي سعيد) لأداء مهمّة التدريس، وذلك استنادا إلى تقاليد بلده الأصلي <<جربة>>.

إنّ فكرة الاختلاء بالطلبة في أماكن بعيدة عن التجمّعات السكّانية تجعل الطلبة ينصرفون تماما عن كلّ ملهيات الحياة، كما تضمن لهم التفرّغ الكامل للتحصيل العلمي والتربية، ويبدو أنّ الزوايا في بلاد المغرب قد نشأت من نفس الفكرة، ولنا في تاريخ التصوّف ببلاد المغرب أمثلة عديدة.

وبعد وفاة العالم يدفن إلى جوار مدرسته أو خلوته، ثمّ يُدفن بعد ذلك إلى جواره كلّ من ينتمي إلى عشيرته أو عرشه، ثمّ تتحوّل الأراضي المجاورة للمدرسة شيئا فشيئا إلى مقبرة حقيقية، فتصبح هذه القبور محاطة بها من كلّ الجهات باستثناء جهة القبلة، وعندئذ يتحوّل ذلك المبنى (المدرسة) إلى مصلّى جنائزي، فيُعطى لها اسم العالم الجدّ،كأن نقول مثلا مقبرة الشيخ عمي سعيد أو مقبرة الشيخ بَاأَمْحَمَدْ، ثمّ تندمج المقبرة مع المصلّى. وهكذا تتغيّر وظيفة المبنى طبيعيا من مدرسة إلى مصلّى جنائزي، حيث تُقام صلاة الجنازة وبعض الشعائر الدينية التي لها علاقة بالميت .

ولتدعيم هذه الفكرة يمكن أن نضيف إلى ما سبق للاستدلال على عملية تحوّل المدرسة إلى مصلّى جنائزي، إطلاق تسمية <<المحضرة>> إلى يومنا على هذا النوع من المباني، مع العلم أنّ اسم المحضرة يُقصد بها المدرسة في منطقة وادي مزاب. إذاً فالمصلّيات الجنائزية نشأت من فكرة المدرسة أو ما يسمى <<بالمحضرة>> ثمّ تحوّلت إلى مصلّيات جنائزية بمجرد دفن الشيخ العالم ولاحقيه من أبناء عرشه بجوارها. فإذا كانت هذه المنشآت المعمارية تؤدّي في البداية وظيفة التدريس، فما هو دورها الجديد بعد عملية التحوّل ؟

إضافة إلى أداء صلاة الجنازة، تستقبل تلك المصلّيات الجنائزية في فترة محدّدة من السنة عدداً هائلا من دارسي القرآن الكريم بدءا بأعضاء حلقة العزابة وحتّى التلاميذ الصغار الذين يتوافدون نحو المصلّى منذ الصباح الباكر، ثمّ ينقسمون إلى مجموعات على حسب درجة حفظهم للقرآن الكريم، وقد خصّص لكلّ مجموعة فضاء معين. ويقوم الوافدون بتلاوة القرآن

الكريم حتى الزّوال، ثمّ يتفرّقون ليرجعوا في المساء قبل صلاة الظهر، حيث يتمّ اختتام القرآن الكريم. وخلال الفترة الصباحية والمسائية يتمّ توزيع بعض الأطعمة (التمر والخبز والكسكس وحتى اللحم ...الخ) المعلّقة على المصلّى الجنائزي في شكلّ أوقاف أو حبوس أو صدقات، ويستفيد من هذه الأطعمة عدد كبير من المحرومين والفقراء والمساكين[22].

وتبرز أهمّية هذه المباني فعلا أثناء ظهور الكوارث مثل المجاعات والأوبئة التي تودي بحياة العديد من السكان الذين يمكن أن تستوعبهم هذه الأماكن، فتُقام عليهم صلاة الجنازة فيها[23].

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّ الصلوات الخمس لا تقام في هذه المباني، اقتداء بالأحاديث النبوية التي تحرّم اتّخاذ المقابر مساجد، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنـه أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم قال : << الأرض كلّها مسجد، إلاّ المقبرة والحمام >>[24].

3 – 2 أنواع المصلّيات الجنائزية:

بعد الملاحظة والتدقيق في النماذج المدروسة آنفا، يمكننا تمييز نوعين مختلفين تماما وهما : المصليات المغطّاة أي التي غطّيت جزئيا أو كلّيا، والمصلّيات المكشوفة تماما.

3 - 2 - 1 المصلّيات الجنائزية المغطّاة:

لا تبتعد المصلّيات الجنائزية المغطّاة كثيرا في تخطيطها وفي نمطها المعماري عن مساجد المدينة إلاّ من حيث الوظيفة. فعلى العموم فقد جاءت تصاميم هذه المصليات في شكل غير منتظم، كما أنّها تمتاز باليساطة والتقشّف في البناء، حيث أنّها تخلو من كلّ أنواع الزخرفة. وقد استخدم في بنائها مواد مستخرجة من البيئة المحلية مثل الأحجار وجذوع النخيل وجريدها ومادة التمشنت والجير.

ومن الصعوبة بمكان محاولة تنميط هذه المصليات، نظرا للتشابه الكبير فيما بينها، فاجتهدنا قدر الإمكان لإيجاد بعض الاختلافات، وبعد الملاحظة الدقيقة، واعتمادا على تقنية التغطية، استطعنا تمييز نمطين معماريين وهما : المصلّيات ذات القباب، والمصلّيات ذات الأقبية[25].

أ - النوع الأوّل: ويمكن أن نطلق عليها اسم المصلّيات ذات القباب **و**يدخل ضمنه كلّ المصلّيات الجنائزية المغطّاة جزئيا أو كلّيا بقباب بارزة من الخارج أو مضمرة ومغروسة في السقف كالمصلّى الجنائزي عمّي سعيد (الصورة: 4) والمصلى الجنائزي بابه او الجمة (اللصورة:

7) ومصلّى باعيسى أُو علوان (الصورة: 9، والشكل: 4)، وما يلاحظ هنا أنّ هذا النوع من المصلّيات الجنائزية ينتشر بكثرة في مدينة غرداية[26]، وهذا الوضع يفرض علينا طرح التساؤل الآتي: لماذا انتشرت معظم المصلّيات الجنائزية المنتمية إلى هذا النوع في غرداية ؟.

يبدو أنّ الإجابة على هذا التساؤل يستدعي منّا البحث في أصل الجماعات المهاجرة التي استقرّت في مدينة غرداية دون غيرها، ولم يكن لها انتشار في المدن الأخرى. ويُفترض بطبيعة الحال أن ينتقل بعض البنّائين مع هذه الجماعات حاملين معهم هذه الأنماط المعمارية التي ألفوا تخطيطها وتصميمها على أرض الواقع، ويبدو لنا أنّ الأمر يتعلّق بالمجموعات القادمة من مدينة جربة بتونس، أو من جبل نفوسة بليبيا، وذلك للاستعمال الواسع لعنصر القبّة في هذه المناطق، ولا سيّما في المنشآت الدينية. كما نجد الأسلوب ذاته في التسقيف متداولا في العمارة الشعبية بمصر، ومن أبرز النماذج مسجد سبع والسبعين بمدينة أصوان الذي ينقسم إلى تسع فضاءات متساوية، مغطّاة بقباب نصف كروية[27].

ينتج عن تقاطع البوائك العمودية والموازية فيما بينها داخل قاعات الصلاة في المصلّيات الجنائزية المنتمية إلى هذا النوع، فضاءات صغيرة غير متساوية تُغطّى بقباب نصف كروية متفاوتة البروز من الخارج أحيانا (الصورة: 7 و9)، ومضمرة أو مغروسة في السقف (الصورة رقم:4) أحيانا أخرى، وترتكز القباب هنا على دعامات مستطيلة أو مربّعة وأحيانا غير منتظمة الشكل بواسطة عقود نصف دائرية.

يظهر مخطّط مصلّى بابه او الجمّة الجنائزي بغرداية (الشكل :3) مختلفا تماما عن المخطّطات التي ألفنا مشاهدتها، ويتعلّق الأمر بمخطّط على شكل حرفT اللاتيني.

ب - النوع الثاني: ويمكن أن نطلق عليه اسم المصلّيات ذات الأقبية، ويعدّ هذا النمط أكثر الأنواع انتشارا في منطقة مزاب. حيث إنّ الفراغات الضيّقة الناتجة عن تقاطع البوائك السائرة نحو جدار القبلة في اتّجاهين؛ العمودي والموازي تمّت تغطيتها بأقبية نصف برميلية أو أقبية متقاطعة، وقد ساعد على سهولة إنجاز هذه الأقبية توفّر مادّة الجريد بكثرة في هذه المنطقة. وما يُلاحظ في المصلّيات الجنائزية المنضوية تحت هذا النوع أنّ قاعات الصلاة فيها تكون في أغلب الأحيان مفتوحة بواسطة بائكة أو أكثر نحو الفضاء المفتوح (الصحن) الذي يحدّده سياج جداري، بحيث لا يتجاوز ارتفاعه 0,70م، ويظهر ذلك جليا في المصلى الجنائزي بأمحمد

(الصورة : 2) والشيخ باسه[28] (الشكل : 5، والصورة: 11) ببني يزقن[29].

إنّ انفتاح بيت الصلاة نحو الفضاء المكشوف بهذا الشكل،لم يأت عفويا أو اعتباطا، بل كان استجابة إلى احتياجات ملحّة تمليها اعتبارات وظروف طبيعية ومناخية. فأغلب هذه المصلّيات بُنيت على سفوح الهضاب الصخرية، وبما أنّ الجزء المغطّى من هذه المباني يكون مواليا للجبل، فكان من الضروري تأمين الضوء والهواء لهذه الأقسام الداخلية المغطّاة من الجهات الأخرى. فجاء الحل عبقريا وذلك بفتح بوائك نحو فضاء مكشوف.

أمّا موقع الصحن بالنسبة لبيت الصلاة في المصليات الجنائزية المغطّاة بالأقبية، فيكون في أغلب الأحيان في موقعه التقليدي كما جرت العادة في المساجد الإسلامية، أي متقدّما بيت الصلاة على محور المحراب، وهذا ما نلاحظه في المصلّى الجنائزي باأمحمد (الشكل: 1) والمصلّى الجنائزي باسّه أو فضل (الشكل: 5).

هناك ظاهرة معمارية لاحظناها في مساجد المدينة وتتكرّر في بعض المصلّيات الجنائزية ذات الأقبية، ويتعلّق الأمر بذلك الكمّ الهائل من الدعامات الساندة، حتى ليعتقد المرء أنّه داخل غابة كثيفة من الدعامات التي تقوم بحمل السقف بواسطة عقود نصف دائرية. وقد كان المهندس المزابي يهدف من وراء تطبيق هذه الطريقة إلى خلق فضاءات ضيّقة بحيث يسهل عليه تغطيتها بما تمنح له البيئة الطبيعية المحلية من مواد.

تُرك داخل بعض المصلّيات الجنائزية فضاءات واسعة نوعا ما مقارنة بالفضاءات المعمارية الأخرى. ولا شك أنّ هذه الفضاءات تُستغلّ لأداء وظائف معيّنة، ولا سيّما ما يتعلّق بحلقات الدّرس، كما تُستغلّ أيضا كمجالس لتلاوة القرآن الكريم جماعيا، وتُغطّى هذه الفضاءات بأخشاب من جذوع النخيل وجريدها وأحسن مثال على ذلك ما نشاهده في مصلى عمّي سعيد (الشكل: 2) والمصلّى الجنائزي باأمحمد (الشكل: 1).

3 – 2 - 2 المصلّيات الجنائزية المكشوفة:

هناك نوع آخر من مصلّيات الجنائزية في مزاب يكون على هيئة فضاء واسع مكشوف تماما، يحدّده سياج جداري، وفُتحت في واجهته القبلية عنزة تبيّن اتّجاه الكعبة وتؤدّي نفس وظيفة المحراب، كما فُتحت على جدرانها عدد كبير من الكوّات التي تُستخدم لوضع الأحذية والمصاحف والأدوات اللازمة لأداء الشعائر الدينية، وقد يبنى في وسط هذه المصليات المكشوفة

عمود منتفخ في الأسفل وضيّق في الأعلى، تغرس في أعلاه قضبان خشبية حيت يُعلّق الأثاث الخاص لأداء الشعائر الدينية داخل هذه المنشآت، ولنا في المصلى الجنائزي الشيخ بلحاج ببني يزقن أحسن مثال(الشكل:6 والصورة: 13). ويبدو أنّ المصلّيات المكشوفة لم تشيّد إلاّ بعد دفـن العالم الذي سيمنح اسمـه فيما بعد للمقبرة المنشأة في المكان[30].

3 – 3 الخصائص المعمارية العامة للمصليات الجنائزية:

- جاءت تصاميم المصليات الجنائزية المغطّاة تشبه كثيرا تصاميم المساجد في مزاب، حيث ميزها الشكل غير المنتظم.
- ما يميز المصليات الجنائزية بمزاب ذلك الكمّ الهائل من الدعامات التي تحمل البوائك السائرة في اتجاه عمودي وموازي لجدار القبلة حتّى ليخال المرء نفسه داخل غابة عنصرها الأساسي الدعامات، وقد استخدم المعماري المزابي هذه الطريقة لخلق فضاءات ضيّقة يسهل تغطيتها.
- بهدف انفتاح بيت الصلاة في النمط الأوّل نحو صحن مكشوف محدّد بسياج جداري قليل الارتفاع إلى إدخال الضوء والهواء إلى بيت الصلاة، لاسيّما في المصليات المبنية في سفوح الجبال، حيث لا حل لمشكلة التهوية والإضاءة إلا من جهة الصحن.
- يلجأ المعماري هنا إلى ترك بعض الفضاءات الواسعة داخل المصليات الجنائزية، وذلك قصد استغلالها للتجمّع الطلبة في شكل حلقة حول الشيخ، وهذا ما يؤيّد نظريتنا حول الوظيفة القديمة (المدرسة) للمبنى.
- تمتاز المصليات الجنائزية بالبساطة والتقشّف في البناء وخلوّها من كلّ أنواع الزخرفة.
- استخدمت جميع مواد البناء التي توفرها بيئة المنطقة، وتتمثّل في الحجر والتمشنت (نوع من الجبس) وجذوع النخيل وجريده وسعفه.

3 – 4 واقع المصليات الجنائزية:

على الرغم من المجهودات التي يبدلها ديوان ترقية وادي مزاب في صيانة هذه العمائر الدينية، فإنها تعاني كغيرها من المعالم التاريخية الإهمال، بروز بعض التصدعات والتشققات في سقوفها، ومما زاد في تدهور صحتها هجرانها من قبل مستعمليها، حيث أصبحت كل الشعائر

الدينية المتعلقة بهذه المصليات تمارس في المساجد تبعا لقرارات حلقة العزابة، وهذا ما جعل أغلب هذه المباني تتعرض لكل عوامل التلف سواء الطبيعية منها أو البشرية.

وأخطر ما يمكن أن تتعرض له هذه المعالم الأثرية تلك الأضرار التي يتسبب فيها الإنسان وتتمثل بخاصة في أعمال التخريب العمدي والحرق والهدم بسب الفتن والحروب الطائفية، لقد مرت على مدن مزاب فتن ونزاعات بين الطائفتين المختلفتين عرقا ومذهبا في فترات تاريخية مختلفة، لكن التاريخ لم يسجل لنا خلال تلك النزاعات أي حادثة استهدفت فيه المباني الأثرية أيا كانت وظيفتها، لكن الفتنة التي وقعت ابتداء من نوفمبر 2013 واستمرت إلى غاية أوت 2014 سجلنا فيه انتهاكات ضد المصليات الجنائزية (الصور: 14، 15، 16، 17)، وهنا لا بد من الوقوف والتساؤل عن مغزى استهداف المعالم التاريخية الإباضية بالتخريب والحرق؟

إن الإجابة على هذا السؤال يجعلنا نعود إلى ما يجري في الدول التي تشهد صراعات وحروب طائفية مقيتة مثل العراق وسوريا وأفغانستان وليبيا، حيث تكون فيه المعالم التاريخية هدفا وعرضة للهدم والتخريب، ويجمع الباحثون أن عملية تخريب وهدم الآثار من أضرحة ومصليات منهج حديث دخيل على الدين الإسلامي تسلكه بعض الحركات الإسلامية المتطرفة،[31] بدليل أن المصادر التاريخية لم تشر إلى حادثة هدم للآثار وقعت خلال الفتوحات الإسلامية للأقاليم غير الإسلامية سواء في بلاد فارس أو الشام أو مصر أو أفغانستان أو في غيرها من الأقاليم الأخرى التي تم فتحها من قبل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعمرو بن العاص مثلا لم يمس الأهرامات والمعابد الفرعونية بسوء أثناء فتحه لمصر سنة 21هـ بل هناك بعض الحكام المسلمين الذين أبدوا اهتماما واحتراما للمباني التاريخية، وهذا دليل على الوعي المبكّر للتراث القديم لدى المسلمين، وخير برهاننا على ذلك ما نقله الرحالة عبد اللطيف البغدادي عن مشاهداته للآثار المصرية القديمة في كتابه «الإفادة والاعتبار» فيقول: <<...وما زالت الملوك تراعي بقاء هذه الآثار وتمنع من العبث فيها، والعبث بها، وإن كانوا أعداءٌ لأربابها وكانوا يفعلون ذلك لمصالح، منها لتبقى تاريخا يتنبه به على الأحقاب، ومنها أنّها تدلّ على شيء من أحوال السلف وسيرتهم وتوافر علومهم وصفاء فكرهم وغير ذلك، وهذا كلّه ممّا تشتاق النفس إلى معرفته وتؤثر الاطلاع عليه...>>[32].

مجلة منبر التراث الأثري
ISSN: 2335-1500, EISSN: 2602-7267
المجلد: 04؛ العدد: 01؛ 2015
ص 59-76

الخاتمة:

إنّ المصليات الجنائزية في وادي مزاب تكتسي أهمية بالغة من الناحية التاريخية والقيمة الفنية فهي تنفرد في هندستها المعمارية عن المصليات الجنائزية المنتشرة في الأقاليم الأخرى، كما أنّها تؤدّي وظائف اجتماعية مهمّة غير التي اعتدناها في العمارة الإسلامية، ومن هنا فلا بد للمصالح المعنية بالمحافظة على الآثار من حمايتها ضد الأخطار التي تحدق بها لاسيما ما يأتي من الإنسان.

ملحق الأشكال والصور

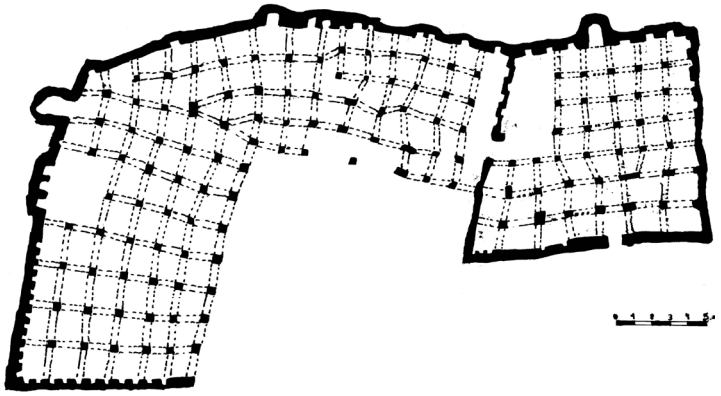

الشكل رقم 1 : مخطّط أفقي للمصلّى الجنائزي بَاأَمْحَمَدْ ببني يزقن

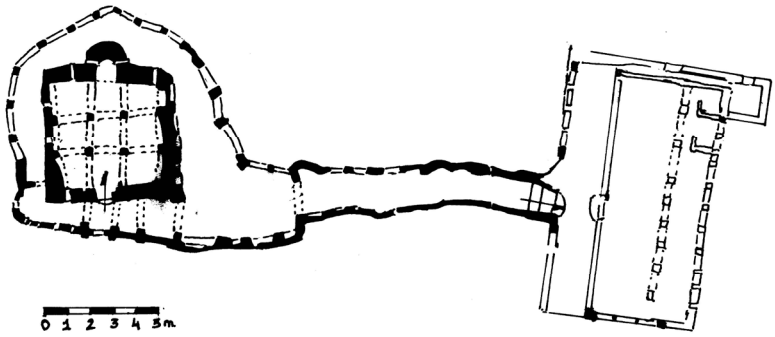

الشكل رقم 2: مخطّط أفقي للمصلّى الجنائزي عمي سعيد بغرداية.

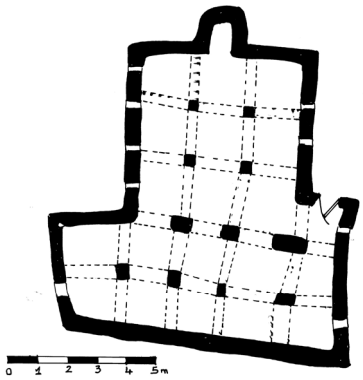

الشكل رقم 3 : مخطّط أفقي للمصلى الجنائزي بابه او الجمّة بغرداية عن/ ديوان مزاب

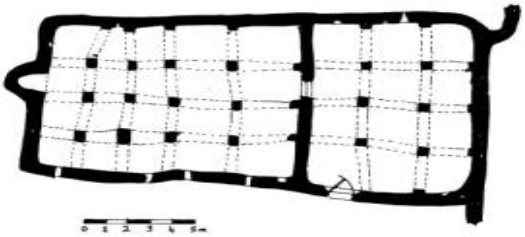

الشكل رقم: 4 مخطط أفقي للمصلى الجنائزي باعيسى أو علوان بغرداية أنجز بالتعاون مع ديوان مظاب

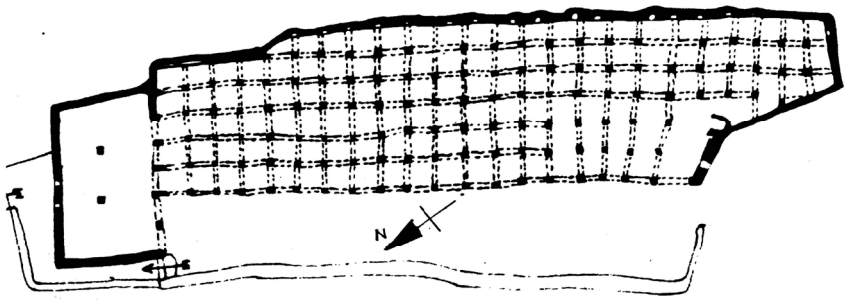

.الشكل رقم 5 : مخطّط أفقي للمصلّى الجنائزي باسّه أو فضل (باسّه بن فضل) ببني يزقن

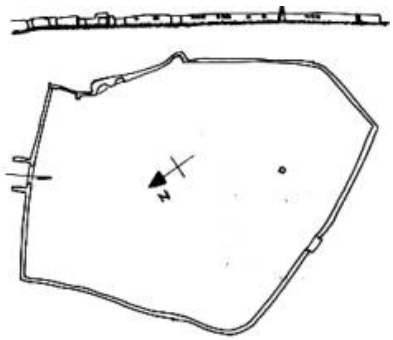

الشكل رقم 6: مخطط أفقي للمصلى الجنائزي الشيخ بلحاج الأول

الصورة رقم 1 : المصلّى الجنائزي بَاأَمْحَمَدْ؛
منظر داخل الحجرة السفلى

الصورة رقم 2 :المصلّى الجنائزي بَاأَمْحَمَدْ؛
منظر للصحن والأروقة المحيطة به.

الصورة رقم 03 : المصلّى الجنائزي بَاأَمْحَمَدْ؛
منظر داخل المصلّى

الصورة رقم 4 : المصلى الجنائزي عمي سعيد
منظر خارجي للمصلّى

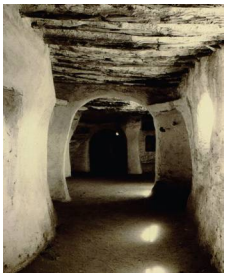

الصورة رقم 5:المصلّى الجنائزي عمّي سعيد؛ الصورة رقم 6: ّى الجنائزي عمّي سعيد؛

الصورة رقم 7 : المصلّى الجنائزي بابه أو الجمّه؛ منظر داخلي للمصلّى

الصورة رقم 8 : المصلّى الجنائزي بابه أو الجمّه؛ منظر خارجي للمصلّى

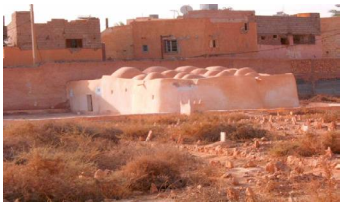

الصورة رقم 9: المصلى الجنائزي باعيسى أو علوان؛ منظر عام من الخارج

الصورة رقم 10: المصلى الجنائزي باعيسى أو علوان؛ منظر داخلي

الصورة رقم 11المصلّى الجنائزي الشيخ باسّه

الصورة رقم 12المصلّى الجنائزي الشيخ

مجلة منبر التراث الأثري
ISSN: 2335-1500, EISSN: 2602-7267
المجلد: 04؛ العدد: 01؛ 2015
ص 59-76

الصورة رقم 13: للمصلّى الجنائزي الشيخ بلحاج؛ منظر عام

الصورتان 14 و15 تبرزان عملية الهدم التخريب العمدي
الذي تعرض له المصلى الجنائزي عمي سعيد بغرداية خلال سنة 2014

هوامش البحث:

1 -Marth et Edmond Gouvion: Kharidjisme ; Monographie du M'zab, Imprimerie Vigie Marocarine, Casablanca, 1926, p: 175.

2 - Ibid, p : 177

3 - A. Coyne: Le M'zab, Ed : Adolphe Jourdan , Alger 1879 , p: 3

4 . بلحاج معروف، العمارة الإسلامية؛ مساجد مزاب ومصلياته الجنائزية، ط:1، دار قرطبة، الجزائر 2007، ص:40.

5 . عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مج : 7، دار العلم للجميع، بيروت، د.ت، ص: 59

6 . الواصلية: هم أصحاب أبي حذيفة واصل بن عطاء الغزّال الألثغ كان تلميذ للحسن البصري . وبالمغرب منهم شرذمة في بلد إدريس بن عبد الحسني الذي خرج في أيام أبي جعفر المنصور ويقال لهم الواصلية واعتزالهم يدور حول أربع قواعد: القول بنفي صفات الباري تعالى من العلم والقدرة والقول بالقدر، والمنزلة بين المنزلتين قوله في الفريقين من أصحاب الجمل وأصحاب صفين، ينظر: أبي الفتح محمّد بن عبد الكريم بن أبي بكر الشهرستاني: الملل والنحل، تح: أمير علي مهنا، علي حسن فاعود، ط6، ج1، دار المعرفة، بيروت، 1997، ص 59-63.

7 -J. Huguzt ; Le Pays du M'zab, in Bull de la Société de Géographie d'Algérie , Imprimerie Typographique et Lithographique Sélion, Alger 1898 , p: 153.

8 . أبو زكرياء، سير الأيمة الرستميون وأخبارهم، تح: عبد الرحمن أيوب، الدار التونسية للنشر، تونس 1985، ص: 255.

9 . أبو عبد الله محمّد بن بكر بن أبي بكر بن يوسف الفرسطائي النفوسي يعتبر أحد أقطاب الإباضيين، والمصلحين الدينيين والاجتماعيين في بلاد المغرب.ولد بفرسطاء في جبل نفوسة سنة 345هـ/956 م أخذ مبادئ التعليم في مسقط رأسه ثم ارتحل إلى الحامة وجربة طالبا الإستزادة في العلم على أكابر المشايخ الإباضية وغيرهم منهم أبي زكرياء فصيل بن أبي ميسور وأبي نوح بن زنغيل وانتقل بعد ذلك إلى مدينة القيروان للتبحر في علوم اللّغة العربية، لما اضطلع في العلم توجّه إلى بلدته وشيّد فيها مسجدا لازال يحمل اسمه. كان أبو عبد الله كثير التجوال، إذ كان يتنقل من منطقة إلى أخرى، حتى أنه كان يتردد على منطقة وادي مزاب.ومن أهمّ ما قام به هذا العالم الإباضي تأسيس نظام اجتماعي يسمى نظام العزّابة.وقد توفى سنة 440 هـ / 1048م. ينظر أبو زكرياء: نفس المصدر السابق، ص : 173- 182. وينظر أيضا الشيخ أبي العباس أحمد الدرجيني: كتاب

طبقات المشايخ بالمغرب، تح إبراهيم طلاي ،ج: 2، مطبعة البعث، قسنطينة، ص: 377-391.
10 . للمزيد من المعلومات حول تأسي المدن المزابية السبع ينظر: بلحاج معروف، المرجع السابق، ص:53– 64.
11 . ابن منظور، لسان العرب، ج :1، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1968 . ص:469-464.
12 . سورة البقرة الآية : 125.
13 . محمد حمزة، المدخل إلى دراسة المصطلحات الفنية للعمارة الإسلامية، القاهرة 1995، ص:37
14 . محمد ناصر الدين الألباني، أحكام الجنائز، دمشق، 1968، ص:106.
15 . السمهودي، الوفاء بما يجب على حضرة المصطفى، ضمن كتاب رسائل في تاريخ المدينة، الرياض 1972، ص:111.
16 . الحمد عبد القادر شيبة، فقه الإسلام شرح بلوغ المرام في جمع أدلة الأحكام للحافظ أبي حجر العسقلاني، ج 3، ط 2، مطابع المدينة، الرياض، د . ت ، ص : 41 .
17 . محمد الكحلاوي، عمائر الموحدين الدينية بالمغرب، رسالة دكتوراه الدولة، كلّية علم الآثار، جامعة القاهرة 1986، ص : 144 .
18 . محمد حمزة إسماعيل، المصلّيات الجنائزية في العمارة المصرية العربية – دراسة أثرية- (تحليلية مقارنة) وثائقية تاريخية، مجلة كلّية الآثار، ع 8، مطبعة جامعة القاهرة 2000، ص:148–149.
19 . بلحاج معروف، المرجع السابق، ص:206.
20 . عوض خليفات، نشأة الحركة الإباضية، مطابع دار الشعب، عمان 1982، ص : 108.
21 . أبو العباس الدرجيني، كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، تر: إبراهيم طلاي، ج: 1، مطبعة البعث، قسنطينة 1972، ص : 170 .
22 . بلحاج معروف، المرجع السابق، ص:209،208.
23 . محمد حمزة إسماعيل الحداد، المصلّيات الجنائزية في العمارة المصرية العربية، ص:141.
24 . خير الدين وائلي، المسجد في الإسلام، أحكامه، آدابه، بدعه، ط: 4، المكتبة الإسلامية، عمان 1998، ص:385
25 . بلحاج معروف، المرجع السابق، ص:209.
26 . نفسه، ص : 210.
27 . رياض المرابط، جوامع ومساجد جزيرة جربة في العصرين الحفصي والمرادي – دراسة أثرية وتاريخية- رسالة دكتوراه، جامعة تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، ص:107.
28 . يوجد هذا المصلى الجنائزي في الجهة الغربية لمدينة بني يزقن على بعد مائة متر تقريبا من الباب الغربي للمدينة، ويكون على يسار المتوجه إلى الأجنّة، وينسب إلى العالم الشيخ باسه أو فضل الذي عاش خلال القرن التّاسع الهجري الرابع عشر ميلادي.
29 . بلحاج معروف، المرجع السابق، ص:212.
30 . نفسه، ص:215.
31 . للاستزادة في هذا الموضوع ينظر: حمد جويد، <<ظاهرة هدم الأضرحة والمشاهد .. الجذور التاريخية والمسؤولية القانونية>> http://www.alshirazi.com/world/article/2012/344.htm
32 . البغدادي، كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، إشراف وتقديم عبد الرحمن عبد الله الشيخ، ط: 2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1998، ص:106.